

شواغلُ السرد وإنتاجُ الهوية في الرواية الجزائرية
قراءة في ثلاثية الأرض والريح
Narrative Preoccupations and the Production
of Identity in the Algerian Novel

الدكتور عبد الحميد ختالة

جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)

Khettala.hamid@univ-khenchela.dz

تاريخ النشر: 2026-06-09

تاريخ القبول: 2026-05-09

تاريخ الإرسال: 2026-01-20

الملخص :

تروم هذه الورقة البحثية إلى تقديم قراءة عمودية في مساحة المعرفة التي ينتجها خطاب الهوية في الرواية الجزائرية، إذ يعدّ موضوع الهوية من أكثر القضايا التي تستفز القارئ بمختلف انتماءاته سواء أكانت الدينية أم العرقية أم الوطنية أم الاجتماعية أم السياسية...، هذا ما أنتج تداخلا عميقا في ما يحيط بهذه القضية من أفهام ومفاهيم، سيّما لما يتعلق الأمر بالاشتغال عليها كمؤثت تخيلي مهيم في الرواية، وقد تُدرج موضوعة الهوية كمحفز جوهري لتوسيع مساحات الذاكرة في مختلف الفنون السردية مطلقا.

تختص هذه الورقة البحثية بالتفاعل نقديا مع المقصدية التي تتوخاها الرواية الجزائرية عادة في تحديد متكآت السرد داخل فعل الحكّي وهو يبحث على أن تكون للرواية هويتها البارزة، من خلال جملة من المرتكزات السردية مثل اللغة والشخصيات وأسماء الأماكن، هذه التي تعطي للنص هويته بغض النظر عن معرفة كاتبه و انتمائه، وهنا نستحضر قول "هايدوغر": " اللغة بيت الوجود في بيتها يقيم الإنسان وهؤلاء الذين يفكرون بالكلمات ويخلقون بها هم حراس ذلك البيت".

تبحث هذه الورقة نقديا في سؤال الهوية في الرواية الجزائرية ودورها الفاعل في صناعة جملة الأنساق المعرفية والثقافية داخل الرواية؟، كما تطرح جملة من الأسئلة الإجرائية مثل: ما هو المبحث السردى المهيمن الذي يشغل عليه الروائي من أجل إنتاج خطاب سردي يؤمّن استمرار سؤال الهوية؟ ويحدّد فواعل

الانتماء لدى القارئ؟ وإلى أي مدى يُسهم الاستئناس بمقولات النقد الثقافي من أجل رصد مرتكزات الهوية في بعض النماذج المنتقاة من الرواية الجزائرية؟
الكلمات المفتاحية: السرد - الرواية - الهوية - الرواية الجزائرية

Abstract

This research paper aims to present a vertical reading of the epistemological space produced by identity discourse in the Algerian novel. Identity is considered one of the issues that most provokes readers across their various affiliations whether religious, ethnic, national, social, or political. This has resulted in a deep complexity surrounding the concepts associated with this issue, particularly when it is utilized as a dominant imaginative element within the novel. Indeed, the theme of identity serves as a fundamental catalyst for expanding the realms of memory across narrative arts in general.

This study critically engages with the intentionality inherent in the Algerian novel as it establishes narrative foundations within the act of storytelling, aiming to forge a distinct identity for the novel itself. This is achieved through narrative pillars such as language, characters, and place names, which endow the text with its specific identity, independent of the author's background. In this context, we invoke Heidegger's dictum: "Language is the house of being. In its home man dwells. Those who think and those who create with words are the guardians of this home."

Furthermore, this paper critically examines the question of identity in the Algerian novel and its active role in constructing epistemic and cultural systems within the narrative. It posits several procedural questions: What is the dominant narrative inquiry employed by the novelist to produce a discourse that ensures the persistence of the identity question and defines the dynamics of belonging for the reader? To what extent does employing the paradigms of cultural criticism contribute to tracing the pillars of identity in selected samples of the Algerian novel?

Keywords: Narrative, Novel, Identity, Algerian Novel.

تقديم :

تستهدف هذه الورقة البحثية تقديم قراءة عمودية في مساحة المعرفة التي ينتجها خطاب الهوية في الرواية الجزائرية، إذ يعدّ موضوع الهوية من أكثر القضايا التي تستفز القارئ بمختلف انتماءاته سواء أكانت الدينية أم العرقية أم الوطنية أم الاجتماعية أم السياسية...، هذا ما أنتج تداخلا عميقا في ما يحيط بهذه

القضية من أفهام ومفاهيم، سيّما لما يتعلق الأمر بالاشتغال عليها كمؤثث تخيلي مهيم في الرواية، وقد تُدرج موضوع الهوية كمحفز جوهري لتوسيع مساحات الذاكرة في مختلف الفنون السردية مطلقاً.

تختص هذه الورقة البحثية بالتفاعل نقدياً مع المقصدية التي تتوخاها الرواية الجزائرية عادة في تحديد متكآت السرد داخل فعل الحكي وهو يبحث على أن تكون للرواية هويتها البارزة، من خلال جملة من المرتكزات السردية مثل اللغة والشخصيات وأسماء الأماكن، هذه التي تعطي للنص هويته بغض النظر عن معرفة كاتبه و انتمائه، وهنا نستحضر قول "هايدوغر": " اللغة بيت الوجود في بيتها يقيم الإنسان وهؤلاء الذين يفكرون بالكلمات ويخلقون بها هم حراس ذلك البيت".

تبحث هذه الورقة نقدياً في سؤال الهوية في الرواية الجزائرية ودورها الفاعل في صناعة جملة الأنساق المعرفية والثقافية داخل الرواية؟، كما تطرح جملة من الأسئلة الإجرائية مثل: ما هو المبحث السردى المهيم الذي يشتغل عليه الروائي من أجل إنتاج خطاب سردي يؤمن استمرار سؤال الهوية؟ ويحدّد فواعل الانتماء لدى القارئ؟ وإلى أي مدى يسهم الاستئناس بمقولات النقد الثقافي من أجل رصد مرتكزات الهوية في بعض النماذج المنتقاة من الرواية الجزائرية؟

في البدء، نَشكّل الوعي بالهوية في معرفة الإنسان لنفسه وفق معايير ذاتية تضمن له الخصوصية عن غيره، وهي حدود وهمية نادت بها مختلف الفلسفات التي آمنت بالفردانية حتى قوّعت الفكر البشري على المفرد وألغت مفهوم الجماعة، ولعلّ هذا ما اشتغل عليه الدين من أجل بعث قيمة اجتماعية الإنسان عقلاً وأحاسيس، وقد وثّق المنطق الديني في الاسلام مفهوم الجماعة، ولعلّ هذا ما تتأسس عليه فكرة مالك بن نبي الذي يرى أن الشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكوّن النوع، وإنما الكائن المعقد الذي ينتج الحضارة، وهذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة، إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء.

فإذا سلّمنا بما تطرحه مختلف الرؤى الفلسفية بأن الحضارة الإنسانية واحدة وأن المتعدّد والمختلف هو الثقافات التي ينتجها الفكر والخيال البشريين في أزمان مختلفة وأماكن متنوعة، فقد أمسى المتعدّد هو الهوية الثقافية وبات السؤال المؤرّق فيها هو الخصوصية والأصالة، ما جعلها تتحول إلى بؤرة صراع مركزية بين مجموعة من الأطراف يحرص كل واحد منها على الإدعاء بامتلاكه الحقيقة أي حقيقة الهوية، واستبعاد الأطراف الأخرى واعتبارهم خارج المجال الثقافي الأصلي، إذ تكاد تكون هذه البؤرة الصراعية قانوناً عاماً للمجال الفكري والأيدولوجي والعقدي، وهو بذلك يكرّس جملة من الأوهام حول دور المثقف والسياسي ورجل الدين باعتبارهم حراس الهوية المقدسة.

إن الذي يغفل عنه التفكير القاصر هو أن للهوية الثقافية من اللين ما يجعلها تتكيف بل وتحتوي أكثر من ثقافة واحدة أو معرفة واحدة، إذ لم تكن أبداً وحدانية البعد الثقافي شرطاً من شروط أي حضارة بشرية

سابقة، بل يحتفظ تاريخ الحضارات بمبدأ التفاعل والتكامل بين أفراد الهويات الثقافية المتنوعة، وقد استحدث القرآن الكريم مبدأ تفاعلياً عظيماً قرب فيه الرؤى والهويات، فبدل كلمة الصراع نجد مبدأ التدافع الذي كرس قداسة اختلاف التفكير وتقارب الجوهر الإنساني بعامه، إذ يقول الله تعالى: "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً" الحج 40، فاختلاف الهوية الثقافية حقيقة لا تُنفى وتكاملها ضرورة لا تُتجاوز.

يُطرح سؤال الهوية الثقافية اليوم وسط جملة من الهواجس والأفكار التي تتوجس خيفة من مستقبل الفرد في المجتمع، خاصة ونحن نعيش هذا الإمحاء الغريب لحدود المجتمع الكلاسيكي في المساحات الشاسعة جدا للعولمة، ولهذا وجب التركيز على جملة من العناصر أجدها في منتهى الأهمية في حماية الإنسان من التميع الثقافي ولعل أبرزها تحديد المرجعية الدينية التي أجدها نقطة ارتكاز تتبناها كل الهويات، بشكل معلن مرة و بشكل متستر في كثير من المرات.

تتبنى العولمة على فكرة محو حدود المسافة الجغرافية بين الشعوب ولكنها لا يمكن أن تدعو إلى نمطية واحدة للفرد والتفكير والمعتقد والفن، إذ لا يستقيم أن يسهم الانفتاح المعرفي الذي أوجدته العولمة في تقزيم كينونة الإنسان المبنية على التنوع والتعدد والاختلاف، ومنه فليس من العقل الخوف من العولمة كما أنه ليس من العقل أن يفقد الإنسان هويته الثقافية والانبطاح في حضرة الآخر، بل الذي يمليه منطق الحضارة البشرية هو أن يحافظ الفرد على محلّيته دينياً وثقافياً ولغوياً وأيديولوجياً إحقاقاً لمبدأ التدافع الضامن لاستمرارية الحياة.

1- الرواية ورهان الهوية:

يتفق الدرس النقدي العربي على أن الرواية العربية قد نشأت وتطورت في مناخ ثقافي مزدحم بالإيديولوجيات المتقاطعة يتدافع فيه المحلي مع الوافد، إيديولوجيا المحلي المتأصل في الموروث الجمعي من سرديات كبرى تمثل المهيمن وسرديات صغرى تدفع بها الأقليات نحو التمرکز والتمكن، ومن مرجع إفهامي آخر هناك من يتساءل إن كانت السياقات الثقافية العربية مؤهلة لإنتاج النمط السردى المعروف بفن الرواية، أم أنها -الرواية- هي نتاج سياقات ثقافية غربية مارست اختراقاً سلباً ومقصوداً اقتحم البيئة الأدبية العربية واستمر في الانتشار أفقياً ثم عمودياً، يتجلى الأفقي في نمطية الشكل ومعمارية السرد الروائي ويُقرأ الانتشار العمودي في المنجز النقدي العربي بمصطلح التجريب في الرواية العربية.

والحال هذه، أصبح السؤال الجدير بالطرح هو هل نحن مخترقون من قبل القوى الامبريالية الغربية بهذا الذي نسميه إجناسيا الرواية؟، وهل يمكن أن نخشى على أنفسنا من أن تنهار تحصيناتنا الإيديولوجية والثقافية أمام هذا الجنس الأدبي المشبع بفلسفات الغرب من الفاشية القديمة وصولاً إلى المثلية؟ خاصة وقد اتسعت مساحة قبول الرواية لدى طرفي الحركة الإبداعية من المبدع إلى المتلقي معاً، وبل قد أصبحت ملاذاً

إبداعيا لكثير من المبدعين من مختلف الأجناس الأدبية، حيث التهمت الروايات قرائح الشعراء والقصاصين والمسرحيين فضلا على من كان روائيا بدءً.

ما من شك أن هذا الاهتمام العالمي الكبير بفن الرواية من خلال ما يُرصد لها من جوائز و إشهار يجعلنا نتوجس خيفة من العواقب والمآلات، إذ لا يخفى على العارف أن السرود كانت وماتزال هي واجهة الأمم ولسان حال ومقال كينونتها، فالرواية أكبر من أن تكون مجرد نص إبداعي بل هي تكاد تكون مؤسسة ثقافية تمتلك سلطة صناعة الوعي و صناعة المعرفة وصناعة الهوية في أي مجتمع، بل للرواية القدرة على صناعة السياسية ونتاج التغيير الذي قد ينطلق فتيله الأول من الرواية التي تنتجها الذات المبدعة وتتبنّاها الذات العارفة، ولعلّ هذا السياق المنهجي الذي يجعلنا نسترعي اهتمام النقد بالمنجز والهوية في الرواية الجزائرية.

الحقّ أنه لا يمكننا قراءة منجز الرواية الجزائرية كتلة واحدة فالنصوص لا تتقاسم الهمّ نفسه ولا القناعة ذاتها ولا المبدأ عينه، فبعض النصوص تنطلق من مرجعية غربية بامتياز ولذلك فهي نصوص تعرف ذاتها بأنها أبواق للهمجية الفرنكفونية، بل هي نصوص تدافع باستماتة كبيرة عن الفكر الكولونيالي وتخدم مشروعا استتصاليا يستشرف نهاية الوجود العربي والإسلامي للأمة، يمثل هذا الصنف من النصوص الاختراق الغربي لهوية الرواية العربية في الجزائر، وأقصد بهذا التوصيف العربي للرواية في الجزائر كونها تتوسل اللغة العربية وبلاغتها وتشكلاتها الأسلوبية المختلفة في الحكي.

في الطرف الآخر، هناك خط سردي ثانٍ ينتهجه النص الروائي في الجزائر يحمل همّ المشروع الاختراقي نفسه إلّا أنّه يتوسل اللغة الفرنسية، و إن كان يشترك مع سابقه في الأيديولوجيا والسعي إلى خلخلة الثوابت وتوسيع دائرة المتغيرات في مجتمع قرائه، إلّا أنه يصطبغ بلوثة استعلائية وإقصائية لكل مرتكزات الهوية الجزائرية، بل يركز كلّ جهوده على استكمال المشروع الاستعماري القديم بكل أهدافه، أدناها هدف نشر اللغة الفرنسية بكل محمولها الفكري والثقافي والاجتماعي.

وهناك خط سردي ثالث يمثل خط الدفاع عن ثوابت قرائه في الجزائر، هذه الثوابت التي هي في الحقيقة مؤنثات الهوية ومركزاتها، قد يتعلق الأمر ظاهريا باستخدام اللغة العربية بوصفها أسّ الهوية وأساسها، ولكنه يتعدى ذلك إلى جملة من مؤسّسات الهوية الوطنية في علاقة الفرد بالتراث واللغة والمرجعية والتاريخ والأرض والمقدسات الدينية والأعراف والتقاليد، هو المنجز السردى الذي يمثل جدار الصدّ الأول اتجاه مختلف الهزّات التي يتعرض إليها الذوق السردى الوطني.

لم يتنازل الاستعمار الفرنسي عن مشاريعه التغريبية في الجزائر بعد الاستقلال لكنّه غير من تكتيكات المواجهة وأدوات المعركة، إذ أمسى تشويه الهوية الوطنية هدفه الأول وقُتل روح الانتماء إلى الأرض والتاريخ أعلى درجات طموحه، فالهوية هي " الصفة الثابتة في الذات التي لا تتبدل ولا تتأثر والهوية ما يبدو لنا من

المجهودات في الأرض للتعبير عن الحقيقة المطلقة الراسخة في الذات الإنساني، كما تأخذ معنى جوهر الشيء وحقيقته وبالتالي فإن هوية الشيء هي ثوابته¹.

لقد أغرقت مفاهيم ما بعد الحداثة العقل العربي بعامة والجزائري بخاصة في مستتقع التبذل والتغير الاعتباري لمركزات الكينونة، حتى صارت الرواية بوصفها جنسا أدبيا لأمّا لشتات الإنسان تصبح على مبدأ وتمسي على آخر، وهذا كله من أجل تشتيت الفكرة المركز التي تشكل نواة الإنسان، رغم أن الهوية كما يقول محمد عمارة هي: "كالبصمة بالنسبة للإنسان، يتميز بها عن غيره، وتتجدد فاعليتها، وتتجلى وجهتها كلما أُزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب دون أن تتخلى عن مكانها لغيرها من البصمات"².

استشعرت الرواية الجزائرية خطر التشظي المقصود لهوية الفرد والجماعة معا، وتوجست خيفة من الأبواب المشرعة عن آخرها بين شعوب العالم، حيث لم يكن الغرض من ذلك تفعيل مبدأ الميثاقية بين الأمم بقدر ما كان الهدف تدمير مركزية الهوية الجزائرية، فعلى رأي الفرابي "هوية الشيء وعينيته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك"³، فإن دلّ الاشتراك عن التعدّد والتنوع التقاسم بين جامعات الأفراد، وهذا لعمرى محمود مروم، ولكنّه قد أمسى في ميدان صراع الحضارات هو ذاته حصان طروادة الذي يشكل أداة الاختراق والتفكيك.

شكل رهط من كتاب الرواية في الجزائر وبخاصة من توسلوا اللغة العربية أداةً للحكي تهديدا صريحا لثوابت الأمة، فعمدوا إلى تسريد قيم العلمانية وتدنيس مقدسات الوطن من خلال كسر ثوابته التاريخية والدينية بالتحديد، وهم الذين يعرفون أنفسهم بأدباء اليسار رغم أنهم في الحقيقة لا يمثلون اليسار بمفهومه الاجتماعي أو السياسي، بل هم الذين اشتركوا في تشييء الفرد الجزائري والاستهزاء بقناعاته العقدية، فغابت عن نصوصهم جدلية القبول والرفض وثنائية الأنا والآخر لتحل محلها لغة الإقصاء والتعالي ورفض تعدّد القراءة. طبعي أن يتشكل هذا التوجّه الأيديولوجي المنصهر في الفكر الكولونيالي، إذ غالبا ما تعرف الحضارات القوى الداعمة والقوى المناهضة، ولكن ما حدث في الرواية الجزائرية هو نوع من التلبس على القارئ، إذ كثيرا ما يجد القارئ نفسه غارقا في متاهات نص روائي متعدد ومتشعب المرامي ولكنه في النهاية سيقود قارئه إلى عين اعصار هوياتي يدمر مقدساته وينسف ثوابته ويمحو انتماءاته الثقافية، إنه النص الضاغط بقوة على نقاط الضعف في البناء الهوياتي للفرد.

الهوية ليست كيانا يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، إنها حقيقة تولد وتتمو وتتكون وتتغير وفق قناعات أصحابها وإملاءات الشعور بالانتماء، وقد تعاني الهوية من الأزمات الوجودية والاستلاب، فالإنسان جسد وروح وهو مادة ووعي، من هذه الثنائيات ينطلق الإنسان لإدراك نفسه ومعرفة ذاته، وهنا وجب الاعتراف بأن موضوع الهوية يتحرك ضمن حقل معرفي شديد الحساسية وصعب المعالجة داخل كلّ إدعاء نظري كيفما

كان تخصصه، ففي وعي الهوية تلتقي السوسولوجيا بالسيكولوجيا وتتقاطع الأنثروبولوجيا بالأيدولوجيا، يضاف إلى ذلك التقاطع الموجود بين الذاتي والجماعي وبين الواحد والمتعدد.

و في مقابل هذا التردّي لقيم الأنا في بعض نصوص الرواية الجزائرية، نجد خطأ سرديا آخر نقيًا خالصا يتنفس روح الانتماء ويقدّس قيم الهوية، خطأ سرديا يحاور الذاكرة بمنتهى الاحترام ويستنطق التاريخ بمنتهى الأدب ويناقش الثوابت والمقدسات بمنتهى الطهر، هو الخط السردي الذي يراهن على الهوية كمؤثث سردي يستحق الفخامة حكيا ونقدا، يتمحور فيه السرد على جوهر كينونة الإنسان ويتمشهد في التاريخ على وصف المعتم منه والجزئي، وتتجاوز فيه شخصياته بلسان عربي مبين.

2/ حوار الذاكرة وسؤال الهوية:

إن الرصيد التاريخي والثقافي الذي يتمتع به المجتمع الجزائري لكفيل بأن يجعل منه أمة متفردة بماضيه المعقّد وتاريخها المجيد، هذا الرصيد كفيل بأن يحدّد المرجعيات السردية للرواية ليظهر خط الانتماء بارزا في التحولات السردية داخل أي نص روائي جزائري، حيث يشكل التاريخ المشترك لأي جماعة بشرية منطلقا لتحديد هويتها الدينية والوطنية والثقافية، فيكفي أن تقرأ أي رواية جزائرية تستحضر شخصية الأمير عبدالقادر الجزائري لتستعيد الذاكرة الجمعية للمجتمع الجزائري، وهذا الذي سيحيلك مباشرة على قضية الهوية بكل تفرعاتها.

نعم، هكذا يستقيم سؤال الذاكرة من أجل قراءة واعية للمنجز الروائي الجزائري بمختلف توجهاته الأدبية ومحمولاته الأيدولوجية، باحثا في موضوعة الذاكرة و مستنطقا سؤال الهوية بوصفه قيمة سردية بارزة، ولا أحسب هذا غريبا عن الخط السردي الذي يتبناه بعض الروائيين الجزائريين من أمثال الطاهر وطار، عبد الحميد بن هدوقة، عز الدين جلاوي جميلة طلباوي سليم بركة عبادو، حيث تبقى الرواية تشكيلا آخر للحياة ولا منأى للحياة عن قيمة الذاكرة والهوية كمعطى إنساني وديني وثقافي.

لقد ظلّت المرجعية التاريخية في "ثلاثية الأرض والريح" للروائي عز الدين جلاوي البانية لمركزية الدلالة، مرتبطة بمجازات وصور بلاغية تحيل على هوية الوطن، والصراع الذي يصنع الذاكرة، ولرسم هذه الدلالات توصل الروائي كل تقنيات السرد لتأثير فضاءات روائية أنيقة تحركها شخوص مختلفة ومتناقضة ومتحولة، تحيي الظاهر والباطن وتعيش السياسي والديني، الحياد والتعدد، حيث التفاعل مع كلّ تحول تعكسه الملفوظات ويترجمه تنوع المعجم والإحالات وتدبيرات أخرى من الروائي في إطار بناء عالم حكاوي يؤدي إلى التحام الذاكرة بالراهن معا في توليفة فنية تشكّل الوعي بالهوية.

"ثلاثية الأرض والريح"⁴ مساحات شاسعة من الحكي تتكشف بأعلى درجات التوتر من أجل أن تسرد ذاكرة مجتمع، وهي رسمٌ لتبادل الأدوار بين ما هو حقيقي ومحتمل، ورصد فني راق للتداول على سلطة السرد بين الذاكرة والانتماء، تتوزع ثلاثية الأرض والريح على ثلاثة أجزاء تتفصل في المتن حكايا من جهة العنوان، إلا أنها تشكل عتبات دالة من جهة سيرورة الحدث، هي تمفصل بنائي يحتاج من فرط تكتيفه التاريخي وزخمه السردى إلى وقفة خارجة حكايا تزيد من متانة الترميم التاريخي للذاكرة، فالرؤية السردية في الخطاب التاريخي تتميز بشكل سردي واحد، هو الخارج حكايا، على اعتبار أن ما يسرده الراوي من أخبار هو في الوقت نفسه مبثّرها من الخارج⁵.

ينهض سؤال الذاكرة في الثلاثية بدءاً من رحلة البحث الأولى التي ينتجها معرفياً عنوان الجزء الأول من الثلاثية "حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر"، يتمرد القائم على السرد في هذه الثلاثية على صمت المعرفة المكرّسة من أجل أن يخلق مساحة للوعي الجديد، تقول الرواية: "أنا لا أؤمن بالمهدي المنتظر"، هو مجرد خرافة رسمها خيال العامة المنهزمين تعلقاً منهم بأمل ما، سيشرق يوماً ليهزم ظلماتهم. لكن حوبة تؤمن به و تنتظره بشوق كبير، وتظل تحكي عنه دون ملل أو كلل⁶.

ظلت حوبة على طول خط الرواية متمسكة بقناعتها بخرافة المهدي المنتظر تمارس الحكي باقتدار ترمّم المتهاوي من الذاكرة، لتصل في آخر ملفوظ سردي من الرواية إلى قول الحقيقة التي صنعت الشعور بالانتماء لدى السارد الكبار/ الروائي، تقول الرواية:

" رفعت رأسي في حوبة وجدتها تبكي منتحبة، ضمنتها إلى صدري أهدئ من روعها، قالت:

- إن عويل الأبرياء العزل ليتردد صده إلى اليوم، وإنني لأسمعه كأنه يحدث اللحظة، ما أكثر جرائم فرنسا في هذا الوطن الغالي.

مسحت دموعها بيمينى، وتجلدي يف سدا أمام دموعي، وقلت:

- لقد قتلوا في تلك الأحداث خمسة وأربعين ألفاً من الأبرياء، بدأت بسعال بوزيد وسلافة الرومية وامتدت كالنار لتلهم كل شيء⁷

يستنهض خطاب الذاكرة في الجزء الأول من الثلاثية سؤال الهوية بعمق، حتى الإنكار الذي كان منصبا على رمزية المهدي المنتظر كان مفتعلا من أجل التدرج في صناعة الوعي، إننا مسكونون بنزوع إلى التسكّع الذي يعبر في الجوهر منه عن سلوك احتجاجي ضدّ إيقاع حياتي منصبّ على الإنتاج ولا شيء غيره⁸، انكأ على الملفوظ السردى الأخير يضعنا الروائي في صلب سؤال الوجود و التاريخ الذي يكتشف

من خلاله يقظة الذاكرة العميقة، بعد رحلة سردية مدمية إلى الماضي تتحرك فيها كائنات ذهنية متخيلة، وُظفت رموزا للدلالة على ضرورة محاورة الزمن ليجيب عن حقيقة الإنسان.

يتعلق سؤال الذاكرة في الجزء الثاني من الثلاثية "الحب ليلا في حضرة الأعور الدجال" ليرسم افتتاحية موعلة في التاريخ بحثا عن الحقيقة، تقول حوبة الرواية:

" أول درس تعلمته هو أنه من الصعب أن نصنع تاريخا عظيما، ولكن من الأصعب أن نحافظ عليه، بل وأن نكتبه بصدق.

... هذه المرة قررت يا حبيبي أن أتخلى عنك، أن لك أن تشق طريقك للبحث عن الحقيقة المحفوفة بالمزالق، أن لك أن تركب وحدك قطار التقصي في تضاريس التاريخ"⁹.

لم تكن رواية "الحب ليلا" سردا للتفكك بل كانت سؤال عميقا في الوجود و حقيقة الإنسان الذي يضمّر الظلم والشر، لم يكن متاحا لحوبة أن تمارس الحكى بأنوثتها كما شهرزاد ببينهما مسافات من الاختلاف، تفصل بينهما درجات من الوعي بمسؤولية الذاكرة في تحقيق الكينونة لدى حوبة، هذه الرغبة الملحة في الاستنكار التي يتزايد نبضها داخل الرواية لتقول في ختامها:

"رفعت أرنبه أنفها ومالت بصدرها على الطاولة وهي تمدّ بصرها إلى البحر الممتد الزرقة إلى ما لا نهاية وقالت:

- التاريخ يا حبيبي لعبة قذرة، إنه كالبحر ما يُرى منه ليس حقيقته، وحقيقته تُعجز أمهر الغواصين الذين تتهددهم دوما قروش ظلمات الأعماق"¹⁰.

اتكأت الرواية الجزائرية على التاريخ من أجل ترميم ذاكرتها و تفعيل دور القارئ في تقديم رؤيته للماضي، وهذا ديدن السرود جميعا إذ يشكل التاريخ زخما سرديا لماعا ينجذب نحوه شغف القارئ، وقد قدمت الرواية الجزائرية منذ ثلاثية محمد الديب التي حاورت التاريخ من خلال المكان -دار السبيطار- وبواسطة شخصيات عيني وعومار، ومثل ذلك فعلت روايات "اللاز" و"ريح الجنوب" و روايات أخرى.

3- تكثيف لغة الحكى و توسع الشعور بالهوية:

إنّ الذي تجدر مناقشته بدءً هو أن الكتابة الروائية بعدما كانت قد تجاوزت مرحلة التمرد على الواقعية وقد استأنس الدرس النقدي بذلك، واعتبره أمرا طبيعيا تمليه سنن الفن، ها هي الآن تتجاوز مهمة تسريد الحدث والذوق والتصور إلى مرحلة أكثر دقة وفاعلية ألا وهي تسريد الفعل الثقافي من أجل إنتاج أنساق ثقافية جديدة لدى القارئ، لتخرج الرواية من دائرة المتأثر إلى مساحات المؤثر.

وكما هو متفق عليه فقد أمست الرواية واجهة ثقافية بامتياز تعكس مضمرات الأمم والشعوب و ترسم مسارات الأنساق الثقافية في جغرافيتها التي تنتمي إليها وتصنعها في آن.

إن الرواية في بعدها الابستمولوجي أكبر من أن تقرأ على أنها نص للتفكّه أو التجاوز اللحظي للزمن والمكان، الرواية ثقافة في أرقى تصورات الثقافة لدى الشعوب العارفة، وللرواية اليوم القدرة على رسم حدود الفهم ومساحات الجمال، فيتحوّل القارئ فيها إلى متلقٍ فاعلٍ في السرد، وتُعدُّ هذه التدخلات من صميم تقنية الكتابة الراهنة للرواية.

الرواية الجديدة أو الرواية الراهن فعلٌ عاقل لجملة الأبعاد الثلاثة للوطن، البعد الثقافي والسياسي والتاريخي، إذ يشتغل فعل السرد في الرواية الراهن على وجود تخيل فوق التخيل الأصلي، وتعليق النص على نفسه وطريقة سرده وهويته، أي أن النص الروائي يمتلك وعيا ذاتيا ويكسر الحاجز بين الواقع والخيال، فالرواية اليوم لا تحيل على التخيل بقدر ما تحيل على التأمل، وهي بذلك تثير رغبة الإنسان/ القارئ في المعرفة والوعي لا الوهم والانتشاء.

لعلّي أقول أن الرواية اليوم لم تعد تشتغل على العرض (Showing)، بل تهتم أكثر بالحكي (Telling)، كما أن سؤال القارئ لم يعد متعلقا بما تريده الرواية مني؟ وهو سؤال موضوعاتي يكاد يكون كلاسيكيا إلى سؤال آخر هو كيف جاءت الرواية؟، وما هو المتكأ اللغوي لنص الرواية؟ ما المرجعيات الفلسفية والمعرفية للنص؟ ما الايديولوجيا المكرّسة حكايا داخل الرواية؟ ثم البحث عن مكان هوية النص الروائي؟ و بالمناسبة هوية النص لا ترتكز في اللغة التي كتب بها فحسب.

انطلاقا من هذا السند المعرفي والتصور الاجرائي قرأت رواية علي بابا والأربعون حبيبة

1/3- فواصل ما قبل الحكي:

الفاصلة الأولى في العنوان "علي بابا والأربعون حبيبة"، إن التكتيف الذي حدث في لغة العنوان متعلق بهذا الاستدعاء المقصود لشخصية علي بابا، ولا أظن أن واحدا من المتلقين الآن لم ترتسم في مخيلته الملامح الجسدية لهذه الشخصية كل حسب مساحة معارفه التاريخية والثقافية، لكن الذي قد يغيب أو لا يأتي أولا هو المخبوء الأيديولوجي لهذه الشخصية، الرواية لا تستدعي إرثا معرفيا فحسب بل تخضعه لإعادة الهيكلة ثقافيا وسياسيا وإيديولوجيا¹¹.

بغض النظر عن اللاحق في العنوان والذي جاء مشفرا بالتمييز للتابع وليس للمتبوع، فبقي الثابت "علي بابا" وتغير التابع من الأربعين لص إلى "الأربعين حبيبة" هو وصف يجرّء الكلية المعرفية القديمة ليحيل على أفهام جديدة للثنائية اللغوية (اللص/الحبيبة).

يكرسها الإهداء بقوله: "إليكن قدرا طافحا بالأسرار". وقد وقع التكتيف اللغوي في هذا الإهداء على كلمة "قدرا"، والقدر ليس اختيارا، وسؤال المعنى هنا يتأرجح بين القبول والرفض لنون النسوة المكتنزة للتأويل في نص الإهداء.

الفاصلة الثانية في الاستهلال: اختارت رواية "علي بابا والأربعون حبيبة" تقديمها ليس بريئا إطلاقا، تتبرأ فيه شهرزاد من سحر الحكيم فتقول: "يا أخية قد أدركني التعب، ولحقني من الحياة النصب، و أجد حكايتي قد انتهت، وخيالي قد بُهت"¹²، قلت بأنه استهلال غير بريء متوسلا قناعتي بالتكتيف الحاصل في الجملتين الأخيرتين، فالتحول الحاصل على أدوات السرد ومقتضياته قد سحب سحر الحكاية من شهرزاد، أصبح لزاما على الرواية أن تتوسل استراتيجيات جديدة لمحاورة الراهن، وأمسى الخيال الغارق في الوهم سردا با مظلما نحو الوهم، القارئ اليوم وفق تصور الرواية يحتاج إلى المعرفة وإلى القراءة بوعي.

يتوسع المعنى الذال على الهوية في نهاية هذا الاستهلال عندما تقصح دنيازاد وريثة الحكيم عن معرفتها بما غفلت عنه الحكاية الأولى فتقول: "فقد حدثتني عن علي بابا وما حدث له مع اللصوص في المشرق، وأغفلت ما وقع له في المغرب، فاسمعي مني "

التركيز المقصود على كلمتي المشرق والمغرب يحيل على سؤال الهوية الذي يكتنزه المعنى، كما مع كلمتي "ما حدث" و "ما وقع" فالأولى تدل على الانقضاء والانهاء وهو سرد ما كان، أما الثانية فتدل على الراهن والآن وهو سرد ما هو حاصل.

خاتمة القول:

الحاصل في الرواية أنها مبوبة وفق عدد الليالي الست التي حددتها دنيازاد لحكايتها، تبدأ الرواية بالليلة الثانية بعد الألف معنونة بـ "آية الخروج / إن سعيكم لشتى" و تنهي بالليلة السابعة بعد الألف معنونة " آية الدخول / إخلع نعليك"، الخروج ثم الدخول ؟ الآيتين؟ و ما بينهما، تحيل الرواية على المرجعية الدينية والتراثية للقارئ و تفتح أبواب الأسئلة عميقة جدا.

الشاهد هنا هو أن هذه الرواية النموذج قد أحالت القارئ على سؤال الهوية من حيث أنها شغلت الكثير من محفزات العودة إلى الأصل لديه، فالعبارات النصية التي اعتمدها الروائي معظمها أو جلّها تعدّ شواغل السرد من أجل إنتاج الهوية، هذه السردية التي ترمم المضمّن التاريخي والتراثي الأصيل في القارئ، وهي من جهة أخرى تحدد ملامح هوية النص الذي أثبت بأنه ينتمي إلى بيئة ثقافة تشكل شخصية "علي بابا" فيها واحدا من محاور الحكيم.

الإحالات:

-
- ¹ - سعد فهد الذويخ: صورة الآخر في الشعر العربي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2009م، ص 30.
 - ² - محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار النهضة، القاهرة، ط01، 1999م، ص 06.
 - ³ - محمد عابد الجابري، الموسوعة الفلسفية العربية، مركز الانتماء العربي، بيروت، 1986م، ص 21.
 - ⁴ ثلاثية الأرض والريح للروائي عزالدين جلاوي، مساحة سردية تمتد على ثلاث روايات هي حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر ورواية الحب ليلا في حضرة العور الدجال ورواية عناق الأفاعي.
 - ⁵ - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ص 369.
 - ⁶ - جلاوي، حوبة رحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص 11
 - ⁷ - حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص 556.
 - ⁸ - راجع ميشال مافيوزي، في الحلّ والتّرحال، ص 30.
 - ⁹ - الحب ليلا في حضرة الأعور الدجال، ص 7.
 - ¹⁰ - الرواية، ص 574
 - ¹¹ - ينظر: عزيز العظمة، سؤال ما بعد الحداثة، ضمن كتاب جماعي بعنوان "الهويّة"، إشراف نادية التازي، المركز الثقافي العربي، ، ترجمة عبد القادر قنيني، ط الأولى 2005،
 - ¹² - جلاوي، رواية علي بابا والأربعون حبيبة، ص 7